حديث الوادي

اعترافات. . .

من زعم لك أن الرجل الطيب، هادئ النفس مطمئن القلب، فارغ البال، ينام ملء جفونه إذا كان الليل ويضحك ملء شدقيه إذا كان النهار فلا تصدقه ولا تسمع لما يقول. فرئيس الوزراء بعيد كل البعد عن هدوء النفس، ناءٍ كل النأي عن اطمئنان القلب، محروم كل الحرمان ما يحب من فراغ البال، وليست المشكلات العادية هي التي تنغص نهاره وتؤرق ليله، فالرجل قد عاش مع هذه المشكلات منذ أسندت إليه أمور الحكم، وهو قد عاش معها كما يعيش الصديق مع الصديق، عيشة كلها صفو ومودة، لا ينغصها ملل ولا سأم ولا يفسدها ضجر ولا ضيق – ولعل رئيس الوزراء لم ينتهِ إلى حل المشكلات لأنه يألف أن يعيش مع المشكلات ويرى في عشرتها المتصلة لذة ومتاعًا لا لأنه يعجز عن حل هذه المشكلات – فالرجل طيب ولكنه ذكي، والرجل طيب ولكنه قوي، ولو أنه أراد أن يحل هذه المشكلات لما أعجزه ذلك، ولكنه استبقاها حتى لا تصبح حياته كلها سهلة يسيرة ممهدة. هو إذن مشغول البال بغير هذه المشكلات العادية؛ لأن هذه المشكلات العادية لا تشغل باله، إنما هي المشكلات الطارئة التي تحدث الناس بها في أول الصيف، ثم أخذوا يلحون في الحديث بها شيئًا فشيئًا كلما تقدم الصيف، ثم امتلأ بها الجو المصري امتلاءً، منذ أقبل نائب المندوب السامي. وقد انتشرت الإشاعات واختلفت

واصطدمت فيما بينها اصطدامًا عنيفًا حتى شغلت الناس عن كل شيء أثناء هذه الأسابيع الماضية، وكان رئيس الوزراء شجاعًا جلدًا وحازمًا جريئًا، فثبت لهذه الإشاعات وقاومها بالصمت العميق، ثم خرج عن المقاومة إلى المهاجمة، فتحدث وأكثر من الحديث، وتبعته الصحف الوزارية فهاجمت كما هاجم وتحدثت كما تحدث، ولجت في النفي والتكذيب كما لج الرجل الطيب نفسه في النفي والتكذيب، ولكن الإشاعات فيما يظهر لا تريد أن تخاف، ولا أن تعرف الخوف، ولا تحب أن تفر ولا أن تفكر في الفرار، وإنما تثبت لرئيس الوزراء كما يثبت لها رئيس الوزراء، وقد آثرت الإشاعات أن تسكت أيامًا لتتيح لرئيس الوزراء وأنصاره أن يفرغوا جعبتهم وأن يقولوا كل ما عندهم. ثم بدا لها فعادت إلى الحركة والنشاط، وإلى الانتشار والإلحاح فيه، وهذه المقطم التي كانت تنفي وتسرف في النفي، والتي كانت تكذب وتغلو في التكذيب، والتي كانت تتخذ الشعر ولغته وسيلة إلى النفي والتكذيب، قد عادت أمس تسجل بعض ما كانت تنفي من الإشاعات فتتحدث بأن للإنجليز رغبات قد تحدثت بها بعض نواحيهم لتبلغ جهة مصرية ما، وتتحدث بما يقال من رئاسة الديوان الملكي قد تسند إلى رئيس بعد أن ظلت خالية وقتًا طويلاً، ولم يكد الناس يقرأون المقطم ويفقهونه ويتبينون ما أراد المقطم أن يشير إليه حتى أسفر صبح اليوم، وإذا صحيفة من صحف الوزارة تصدر بالفرنسية قد كتبت فصلاً غريبًا، لم تتعود أن تكتب مثله، ولم يكن ينتظر منها أن تكتب مثله، فهي تثني على الصحافة المصرية كلها، وهي تثني على الصحافة المعارضة خاصة، وهي

تثني على رؤساء التحرير في صحف المعارضة بعد أن كانت يوم الأحد الماضي، تنصح لهم بأن يحطموا أقلامهم ويشتغلوا بتجارة «المودة» وبعد أن كانت تصفهم بالجبن والخوف.

نعم هي تثني على صحف المعارضة ومحرريها لأن هذه الصحف نسيت ما كان يملأ قلب أصحابها وأحزابها من الحقد والموجدة وأعرضت عن الخصومات الداخلية كلها، فاتفقت مع غيرها من الصحف الموالية على شيء واحد تأمر به الوطنية الصادقة وهو حماية الاستقلال، ومقاومة التدخل الأجنبي في الشؤون المصرية الخاصة. ومن المحقق أن صحف المعارضة قد استجابت اليوم كما استجابت من قبل، وكما ستستجيب دائمًا لدعوة الوطنية الصادقة، وقاومت وستقاوم دائمًا كل تدخل أجنبي في الشؤون المصرية الخاصة لأنها لم تنشأ إلا لهذا ولأنها لا تفهم الحياة إلا على هذا، ولكن قومًا آخرين تعرفهم هذه الصحيفة يحسنون جدًا وضع أصابعهم في آذانهم حين تدعوهم الوطنية الصادقة إلى حماية الاستقلال، وإنكار التدخل الأجنبي في الشؤون المصرية، والاحتجاج على التفتيش الذي قام به نائب المندوب السامي على الشرطة والمطالبة بترضية مصر والمصريين عن اعتداء الجند البريطانيين على أبناء الشعب اعتداءً كان من نتائجه الموت.

هؤلاء الناس يتجرون بالوطنية يلوذون بها حين يرون في ظلها أملًا في البقاء، ويعرضون عنها حين يرون في ظلها تعرضًا للخطر. مهما يكن من شيء فصحيفة الوزارة هذه تسجل كما سجلت المقطم أمس أن الموقف السياسي دقيق وأن الاستقلال المصري معرض للخطر وأن الوطن في حاجة إلى اتحاد أبنائه،

وإذن ففي الجو شيء، وفي الجو شيء خطير، وقد كانت نفس هذه الصحيفة منذ يوم أو يومين تنكر أن يكون في الجو شيء كما كانت صحيفة المقطم تنكر أن يكون في الجو شيء. وإذن فهل طرأ طارئ جديد؟ وهل حدث حادث لم يكن يعرفه الناس وما يزالون يجهلونه؟ وصحيفة رئيس الوزراء نفسها تسجل أن في الجو شيئًا صباح اليوم فهي تشتم المعارضة كما تعودت ولكنها تتحدث عن الساعة الرهيبة وتذكر أن الوزارة لا تستطيع أن تفرغ للمعارضة لأن عليها واجبًا جليل الخطر هو إنقاذ الوطن، إنقاذ الوطن من ماذا؟ لقد كان كل شيء هادئًا في رأي الوزارة وصحفها إلى أمس فهل حدث شيء منذ أمس؟ وماذا عسى أن يكون هذا الشيء؟ كلا لم يكن كل شيء هادئًا، وإنما كان كل شيء مضطربًا أشد الاضطراب، ولكن الوزراء وأنصار الوزراء كانوا يتكلفون المقاومة ثم أدركهم العجز عن هذه المقاومة فأخذت صحفهم تعترف ببعض الحق لن تنقضي أيام حتى تعترف هذه الصحف ويعترف الوزراء معها بالحق كله وحتى يعلم الناس علم اليقين أن هذه الإشاعات التي حدثتهم عن الأزمة لم تكذبهم وإنما صدقتهم كل الصدق، وحدثتهم بالحق الذي لا شك فيه. ولو أن الوزراء يقدرون ما يحملون أمام وطنهم من تبعات لما ترددوا في أن يظهروا مصر على ما يمكن أن تظهر عليه من أمور هذه الأزمة، ولما تركوا هذا الشعب كله في هذه الحيرة وفي هذا الاضطراب ولكنهم منحوا أنفسهم من العصمة ما لا يملكون فاستأثروا بأمور الشعب من دون الشعب وظنوا أنهم قادرون على أن ينهضوا بالأثقال وحدهم، ثم لم يلبثوا أن أحسوا العجز وتبينوا أنهم أضعف من

أن ينهضوا بهذه التبعات وهاهم أولاء الآن يلتمسون عون الشعب وتأييده وما كان الشعب ليبخل بالعون والتأييد ولكن على قوم يحبهم ويحبونه، يثق بهم ويثقون به، يطمئن إليهم ويطمئنون إليه. والوزراء يعلمون حق العلم مكانهم الصحيح من حب الشعب وثقته واطمئنانه ونظنهم يعلمون حق العلم أيضًا أن الواجب الوطني يكلفهم في هذه الأيام العصيبة أن يستقيلوا وأن يدعوا مكانهم لقوم آخرين يجدون من نصر الشعب لهم وتأييده إياهم قوة تمكنهم من أن يحققوا للوطن ما يجب له من حقوق. فالشعب أكرم من أن يهن في المطالبة بما يجب له من حق، فالذين ينتظرون تأييد الشعب، يجب عليهم أن يرضوا الشعب، والذين يعتمدون على حب الشعب، يجب عليهم أن يعلموا أن الشعوب لا تحب بالإكراه وإنما تحب بالرضى. والشعب المصري لا يحب إلا الذين يعترفون له بحقه الكامل في الحرية والكرامة والعزة والاستقلال، فعلى الذين يريدون هذا الشعب على أن يؤيدهم وينصرهم، أن ينزلوا قبل كل شيء لهذا الشعب عن حريته وأن يحفظوا له كرامته وعزته، وأن يعترفوا بأن أمور الشعب يجب أن يديرها وكلاء الشعب الذين يربطهم به الرضى والحب، لا القهر والعنف.

طه حسين

الوادي، ١٩ أكتوبر ١٩٣٤.